القدس العربي
AL-QUDS AL-ARABI

# رغم مفهوم الدولة الحديثة... القبائل باقية وتتجدد!

9 - يوليو - 2021

وائل عصام

ما زالت الروابط القبلية تلعب دورا فاعلا في وجه مفهوم الدولة في المنطقة العربية، بل والعالم القديم، ويتحدى الانتماء للقبيلة، عرقية كانت أم روحية (الطائفة) عدة منظومات سياسية حديثة، تحاول تصنيف الناس وفق أحزاب سياسية، أو طبقات اجتماعية، تؤثر تفاعلاتها وشبكاتها في شكل الدولة الحديثة، ما قاد أصحاب هذه النظريات الحداثوية إلى تأويلات جديدة تتراوح بين الإنكار والتلفيق، في محاولة منهم للخروج من مأزق القصور في تفسير فاعلية هذه الروابط البدائية، في منطقتنا العصية على التغيير حتى يومنا هذا.

ففي بلاد تستعر فيها نزاعات طائفية وقبلية، كالعراق وسوريا ولبنان، تجد من يصر على تفسير هذه النزاعات وفق مفاهيم طبقية فقط، تبلورت ضمن سياق مجتمعات أخرى تعيش تحديات مختلفة، وإن كانت التمايزات الطبقية والفروقات القائمة بين الفقير والغني موجودة

بالفعل، لكنها أقل تأثيرا من الروابط البدائية التي تحرك الناس في مجتمعات هذه المنطقة العتيقة من العالم، وفق دوافع الهوية القبلية العرقية أو الطائفية.

لتبدو هذه المنطقة من العالم وكأنها عصية على الحداثة، ونظم العمل السياسية الحديثة القائمة على الأحزاب السياسية، والمجتمعات المدنية ما بعد القبلية والريفية.

يراجع كبار ضباط المارينز في العراق، ومنهم وزير الدفاع الأمريكي السابق ماتيس الذي كان من قادة العمليات في الأنبار والفلوجة، تجربتهم في الخروج من مأزق التمرد السني، الذي واجههم بعد الاحتلال، في عدة كتب ودراسات، أعدتها مراكز البحث في الكليات العسكرية الأمريكية، ويخلصون إلى أن بناء مشروع الصحوات القبلي الذي فكك فصائل التمرد، وجذب جزءا منها لصف الأمريكيين في معركتهم ضد الجهاديين و"القاعدة"، تم من خلال بناء شبكات قبلية، وأن التعامل مع القبائل وشيوخها والمؤثرين فيها، كان خلاصة دراستهم لما سموه "التضاريس البشرية" في محافظة الأنبار معقل التمرد السني.

وفي سوريا يتكرر الأمر في المناطق العشائرية شرق سوريا، فالنظام السوري لم يجد خيرا من التحالف مع زعماء قبليين، لبث نفوذه هناك، فكانت صفقة نواف البشير زعيم قبيلة البكارة، ناجحة، وحولت قيادياً في المعارضة إلى حليف للأسد، ونلاحظ هنا أن بيت المشيخة في آل البشير، ظل مطمعا للتحالف مع مشاريع السياسة، من زمن والد نواف حليف الأسد الأب، إلى زمن الابن نواف مع المعارضة السورية، تبدلت الظروف والولاءات السياسية، لكن بيت المشيخة ظل ثابتا، كما تفعل دائما القبيلة، بتقليب تحالفاتها السياسية بالميزان في مسعى دائم لصون بقاء القبيلة ودورها! ولا تجد تركيا في الشمال السوري خيرا من فصائل ذات طابع عشائري لتعمل معها، كأسود الشرقية وفصيل أبو عمشة، كما ظهرت عشيرة الشعيطات، كمثال على "الثأر القبلي" الذي يستخدم عدة عناوين سياسية لغايته، فتجد الشعيطات مع النظام السوري في "أسود الشرقية" وتجدهم مع جبهة النصرة وتحرير الشام في قطاع البادية، وتجدهم مع "قسد"، وهم في جميع الأحوال يحاربون غريمهم الذي شرد وقتل أبناء قبيلتهم، تنظيم "الدولة".

وفي العراق وسوريا ولبنان، إذا خفت دور القبيلة العرقية في المناطق غير العشائرية، نجد ارتفاع دور القبيلة الروحية، الطائفة، فهي رابطة بدائية أخرى تقاوم مفهوم المواطنة وتضعضع أسس الدولة الحديثة.

وهكذا اكتسبت الصراعات التي ولدتها فترة ثورات الربيع العربي ومخاضاتها، طابعا طائفيا في سوريا وعشائريا في ليبيا، فحتى في بدايات الثورة الأولى اتضح أثر النزاع الممتد لقبل قرن من الزمان بين مصراتة وقبائل ورفلة في بني وليد، وظل يطل برأسه كل مرحلة، فحتى ما بعد زوال القذافي، الذي كانت

> اكتسبت الصراعات التي ولدتها فترة ثورات الربيع العربي ومخاضاتها، طابعا طائفيا في سوريا والعراق وعشائريا في ليبيا

بني وليد من دعامات حكمه، ظلت عشائر سرت وبني وليد نقاط رفض للنظام الجديد، الذي كانت مصراتة من دعاماته، ولاحقا تكرر الأمر في فترة تنظيم "الدولة". وحتى في المرحلة الأخيرة التي شهدت محاولة حفتر السيطرة على طرابلس، اعتمد كل طرف على لون مناطقي وقبلي، فحفتر يعتمد شرقا على عدة قبائل مثل العبيدات، ومنها الزعيم التاريخي عمر المختار والعواقير والبراعصة، ومنهم زوجة القذافي، والمنفه، ومنهم رئيس المجلس الرئاسي محمد المنفي، والمغاربة وغيرهم، ويقول زميل صحافي ليبي هو محمود أبو جناح، عملت معه في طرابلس خلال أحداث الثورة الليبية 2011، إن تلك القبائل التي يعتمد عليها حفتر شرق ليبيا، لها عداوات تاريخية مع الوجود العثماني، وزادت هذه العداوة بعد التدخل التركي في ليبيا لحماية حكومة طرابلس، وتطور الصراع عندما وصلت قوات حفتر المدعومة من تلك القبائل لطرابلس، حيث وقع منهم الآلاف قتلى وجرحى خلال الهجوم، ما زاد من نقمتهم على الوجود التركي، وأيقظ نعرات تاريخية، وجعلهم يقومون بالاعتداء على العلم التركي قبل أيام، ووضعه على الطريق المؤدي للبرلمان لتعطيل مرور رئيس الوزراء الليبي الحالي عبد الحميد الدبيبة، فهم ناقمون على حكومة طرابلس وداعميها في أنقرة، خصوصا أن الدبيبة ينتمي لمدينة مصراتة المعروفة بانتماء نسبة كبيرة من سكانها لأصول تركية، وتلعب دورا مهيمنا على طرابلس وحكومتها منذ الإطاحة بالقذافي.

ولا يقتصر الامر على البلدان العربية في ما يتعلق بدور النزاعات القبلية والقبلية الروحية الدينية في تحريك الصراعات بين الدول وداخل الدول، وفق بوصلتها، فمعظم النزاعات الأخيرة والتوترات في العالم القديم مصدرها تلك النزاعات، بدءا من باكستان والهند، صربيا والبوسنة، الهوتو والتوستي، جنوب السودان والخرطوم، وإثيوبيا التي تجدد فيها نزاع قديم بين قبيلتي التغراي والأمهرة.

*كاتب فلسطيني من أسرة "القدس العربي"

## كلمات مفتاحية

وائل عصام | الدولة الحديثة | الصحوات | الطائفية | القبلية